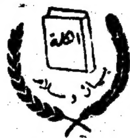
محمد عجاج الخطيب

السنة قبل التدوين



الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٣٩١٧٤٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

نال المؤلف بهذا الكتاب درجة الماجستير فى العلوم الإسلامية
« مادة الشريعة الإسلامية » بتقدير ممتاز من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة

الطبعة الثانية

رمضان ١٤٠٨ هـ
أبريل ١٩٨٨ م

القاهرة

دليل الكتاب

تقديم

بقلم

فضيلة الأستاذ علي حسب الله

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهِرَه على الدين كله ، وأنزل عليه كتابه الكريم تبياناً للحق وهدى إلى الصراط المستقيم ، وأمره ببيانه وتنفيذ أحكامه بأقواله وأعماله ليكون للأمة من ذلك دستور كامل ، لا يغادر من أمور معاشهم ومعادهم صغيرة ولا كبيرة إلا وضع قواعدها ، وقرر أصولها ، وأضاء طريق الوصول إلى الحق فيها .

فلله الحمد والشكر على ما منح عباده من أسباب الهداية ، وما ضمن لهم من حفظ كتابه ، وما وَفّقَهُم إليه من العناية به ، والاستهداء في تفسيره وتطبيقه بقول رسوله صلى الله عليه وسلم وعمله .

أما بعد فقد اصطنع الله محمدا صلى الله عليه وسلم لنفسه ، ورباه فأحسن تربيته ، وكمل خُلُقه حتى قال فيه — وهو أصدق القائلين — : « وإنك لَعَلى خُلُق عظيم »(1) ، ثم بعثه إلى الناس بشيراً ونذيراً : « يأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً »(2) .

---

(1) ٤ : القلم

(2) ٤٥ ، ٤٦ : الأحزاب

وقد افترض عليه ما افترض على الناس من طاعته والعمل بكتابه ، فقال سبحانه : « يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً . واتبع ما يُوحَى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا »[1] ، وقال تعالى . « اتبع ما يُوحَى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين »[2] ، وقال : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون »[3] .

وأمره أن يبلغ ما أُنزِلَ إليه فقال : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بَلَّغْتَ رسالته »[4] ، فَبَلَّغَ صلى الله عليه وسلم ما أمره الله بتبليغه ، وشهد الله تعالى له بذلك فى قوله : « والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وَحْى يوحَى . عَلَّمَه شديد القُوَى »[5] ، وقوله : « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض »[6] ولو أنه قصر فى تبليغ رسالته ، أو بلغ ما لم يؤمر بتبليغه — لَحَلَّتْ به عقوبة ربه : « ولو تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بعضَ الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين »[7] .

كما أمره أن يبين للناس ما خفى عليهم من مقاصده ، ويشرح لهم طرق تنفيذه فقال تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون » .[8] ، وقال سبحانه : « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »[9] .

---

(١) أول الأحزاب .
(٢) ١٠٦ : الأنعام .
(٣) ١٨ : الجاثية .
(٤) ٦٧ : المائدة .
(٥) أول النجم .
(٦) ٥٢ ، ٥٣ : الشورى .
(٧) ٤٤ — ٤٧ : الحاقة .
(٨) ٤٤ : النحل .
(٩) ٦٤ : النحل .

هكذا أعد الله رسوله للقيام بأعباء رسالته ، ثم أمر الناس بطاعته :

أمرهم بطاعته مقترنة بطاعته سبحانه فقال : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تَوَلَّوْا عنه وأنتم تسمعون »(١) ، وقال تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً »(٢) ، وقال سبحانه : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا »(٣) .

وأمرهم بطاعته استقلالا فقال سبحانه : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب »(٤) . وقال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حَرَجاً مما قضيت ويُسَلِّمُوا تسليما »(٥) ، وقال سبحانه : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ، قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لِوَاذاً ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم »(٦) .

ثم قرر سبحانه أن طاعة رسوله طاعة له ، فقال : « إن الذين يبايعونك إنما يُبَايِعُونَ اللهَ يدُ اللهِ فوق أيديهم ، فمن نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليهُ اللهَ فسيؤتيه أجراً عظيما »(٧) ، وقال سبحانه : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً »(٨) .

ولا خفاء بعد هذا فى أن كتاب الله هو أصل دينه ، وأن سنة نبيه —

(١) ٢٠ : الأنفال .
(٢) ٣٦ : الأحزاب .
(٣) ٦٩ : النساء .
(٤) ٧ : الحشر .
(٥) ٦٥ : النساء .
(٦) ٦٣ : النور .
(٧) ١٠ : الفتح .
(٨) ٨٠ : النساء .

قولية كانت أو فعلية — هى الموضحة لأحكامه ، والمفصلة لإجماله ، والهادية إلى طرق تطبيقه ، فهما صنوان لا يفترقان ، ومنبعان للتشريع متعاضدان ، ولا شبهة فى أن طاعة الرسول طاعةٌ لله ، ومخالفة أمره معصية لله تعالى : ومن عمل بالقرآن على غير المنهج الذى انتهجه الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكون عاملا بالقرآن .

وقد جرت سنة الله تعالى فى خلقه أن يختلف الناس فى تقبل دعوات الرسل ، والأخذ بأسباب الهداية والصلاح مهما قامت الدلائل ووضحت البينات ، « ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم »[1] ، فنهم من يستجيب لداعى الخير مسرعا مطمئنا ، ويتجنب مزالق الجهل والخسران ، ومنهم من يركب رأسه ويتبع هواه ويضل عن سواء السبيل : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هَدَى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة »[2] . « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الأنس والجن يُوحِى بعضُهم إلى بعض زخرفَ القول غروراً . ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون »[3] ، « ياحسرةً على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون »[4] .

وقد ابتلى المسلمون فى كل العصور بمن يحاول صرفهم عن الإسلام ؛ تارة بالطعن فى كتابه ، وأخرى بمحاولة انتقاصه من أطرافه ، بالطعن فى السنة التى تفصل ما أُجمِل منه ، وتوضح ما خفى ، وكأنهم حين وقفوا من القرآن أمام جبل شامخ لا يلين ، ورجعوا بعد العناء بخفى حنين — ظنوا أنهم قادرون على

---

(١) ١١٨ ، ١١٩ : هود . (٢) ٣٦ : النحل .
(٣) ١١٢ : الأنعام . (٤) ٣٠ : يس .

النَّيل منه بتوهين السنة التى هى عماد بيانه ، فسلكوا لذلك طرقا ، وتكلفوا شططاً ، فمنهم من تجنى على الرواة وطعن فى عدالتهم وصدقهم ، ومنهم من طعن فى متن الحديث فأنكر منه ما لم يوافق هواه ، ومنهم من ادعى انقطاع الصلة بين الرسول وما يروى عنه وتَعَذُّرَ تمييز الصحيح منه من السقيم ، لإهمال تدوينه نحو قرنين من الزمان ، وانتشار وضع الحديث انتصاراً لرأى أو إبطالا لمذهب ، فدعا إلى إهمال الحديث جملة والاكتفاء بالقرآن الكريم ، ومن المؤسف حقاً أن يقول بهذا الرأى من يزعم أنه من المسلمين .

ولكن العلى القدير الذى تكفل بحفظ كتابه وأصول دينه بقوله : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(١) كان يمنح معونته وتوفيقه دائماً للمتقين المخلصين ، ويخذل أعداءه المعاندين : « ولقد اسْتُهْزِئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون »(٢) ، « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنَّى ألقى الشيطانُ فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطانُ ثم يُحْكِم الله آياته والله عليم حكيم »(٣) ، « ولقد سَبَقَت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون »(٤) .

فلهذا هيأ لدينه فى كل العصور من يَرُدُّ كيد الطاعنين فى نحورهم ، وهيأ لسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان — من عُنِى بالدفاع عنها بعد البحث فى سندها ومتنها ، بتعرف أحوال رواتها ، وتمييز صحيحها من سقيمها ، ثم حفظها تارة فى الصدور ، وأخرى فى السطور .

لقد كان المسلمون بين أن يدفعهم الحرص على سنة نبيهم إلى تقبل كل

---

(١) ٩ : الحجر .
(٢) ١٠ : الأنعام .
(٣) ٥٢ : الحج .
(٤) ١٧١ — ١٧٣ : الصافات .

مايروى حتى لايفوتهم ماصح منها ، وأن يتأثروا بشبه المضللين فيرفضوه كله حذراً من الأخذ بالموضوع والوقوع فى الباطل ، ولكن الله جنبهم الخطتين ، وعصمهم من الوقوع فى الورطتين ، ووفقهم إلى الطريقة الوسطى ، طريقة الاعتدال البعيدة عن التعصب الأعمى والتحامل الذميم ، طريقة الفحص والتمحيص للسند والمتن ، ووضع القواعد العلمية الصحيحة لمعرفة من يقبل ومن لا يقبل من الرواة ، وما يقبل وما يرد من الأحاديث ، وبهذا ميزوا الخبيث من الطيب ، ونالت السنة بجهودهم ما لم يعهد فى شريعة من الشرائع ، ولا فى نص من النصوص غير الكتاب الكريم .

وكان مما أثلج صدورنا ، وفتح باب الأمل فى شباب عصرنا — أن الطالب المؤمن بربه ، والغيور على دينه ، والمحب لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم السيد « محمد عجاج الخطيب » — سار على توفيق من الله ، وهدى من السلف الصالح ، فاختار لنيل درجة الماجستير فى العلوم الإسلامية من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة — موضوع « السنة قبل التدوين » ، ليدفع ببحثه ما أثاره المضللون من انقطاع الصلة بين الرسول وما بين أيدينا من سنته ، ويظهر ما خفى على كثير من الناس من تدوين بعض السنة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبعضها فى عهد الصحابة والتابعين ، قبل أن تدون التدوين الرسمى المعروف .

وقد رَجَّحَ أن التدوين الرسمى بدأ فى منتصف العقد الهجرى الثامن من القرن الأول حين طلب أمير مصر : عبد العزيز بن مروان بن الحكم من كثير ابن مرة الحضرمى — الذى أدرك سبعين بدريا من الصحابة فى حمص — أن يكتب إليه بما سمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حديث أبى هريرة فإنه كان عنده . ولا يظن بكثير إلا أن يستجيب لطلب الأمير ، فيجتمع له بهذا ما كان عنده من حديث أبى هريرة وما عند كثير ، وحسبك هذا تدويناً

رسمياً لقسط كبير من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك العصر، ويكون ما فعله عمر بن عبد العزيز بعد هذا — من العناية بالحديث ومطالبة العلماء فى الأقطار المختلفة بكتابته والجلوس لمدارسته — ليس إلا امتداداً لما شرع فيه أبوه من قبل. وهو رأى يرجحه ماعرف عن السلف من الحرص على حفظ السنة والعمل بها.

وقد اقتضاه البحث أن يتكلم عن الوضع وأسبابه، وجهود الصحابة والتابعين ومن بعدهم فى مقاومته وتطهير السنة من أوضاره، وأن يتحدث عن آراء بعض المستشرقين ومن انخدع بهم من المسلمين، فَفَنَّدَ مزاعمهم، ورد الحق إلى نصابه فى مفترياتهم، وبين فضل الصحابة وعدالتهم، وحرصهم على العمل بالسنة وحفظها، وتثبتهم فى روايتها، واقتداء من جاء بعدهم بهم فى ذلك، كما تعرض لما أثير حول بعضهم من شبهات فنفاها عنهم.

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن الطالب كان أصيلا فى بحثه، لم يُعوزه تَوجيه وإرشاد؛ بل جمع بجده كل ما استطاع الوصول إليه من مراجع، وتناول منها كل مايلائم بحثه، ثم عرض ذلك على مقاييس صحيحة فى نزاهة وصدق وإيمان، وبهذا نَظَمَ نَفْسَه فى سلك المحبين للسنة، الذين بشرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة فيما رَوَى الترمذى عن أنس رضى الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من أحب سنتى فقد أحبنى، ومن أحبنى كان معى فى الجنة».

والله المسئول أن ينفع الإسلام والمسلمين برسالته، وأن يجعل من شبابنا شبابا صالحاً لاتخدعه مظاهر المدنية الكاذبة، فيعكف على دراسة الدين القويم، والتراث المجيد، ويدفع عنهما تهم المبطلين، وضلال المضلين، وهو الهادى إلى الصراط المستقيم.

المحرم ١٣٨٣ يونيه ١٩٦٣ — على حسب الله